

"ابن الفقير" من كتابة عن الذات إلى كتابة عن الآخر
"Ibn al-Faqir" from writing for self to writing for others
 د. إسمة ميسوم *

تاريخ النشر: 2021/09/15	تاريخ القبول: 2021/05/09	تاريخ الإرسال: 2021/04/24
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن معالم السيرة الذاتية في رواية "ابن الفقير" للروائي الجزائري مولود فرعون، ومدى التطابق بين المؤلف وبين السارد والشخصية الرئيسية، إمّا بطريقة علنية أو ضمنية وفق ما عرف عند فيليب لوجان (Philippe Lejeune) بالميثاق السري ذاتي (pacte autobiographique)، كما تطمح الدراسة إلى الكشف عن إمكانية الانتقال من الكتابة عن الذات إلى الكتابة عن الآخر، حيث يستثمر الكاتب سيرته الذاتية للكشف عن جوانب من حياة أفراد عائلته وجيرانه وأصدقائه، إضافة إلى العادات والتقاليد التي تميز مجتمعه ويستمد منها خصوصيته. الكلمات المفتاحية: كتابة الذات، اليوميات، المذكرات، السيرة الذاتية، الرواية السيرة الذاتية، الميثاق السري ذاتي، التخيل.

Abstract :

This article aims to reveal the features of the biography in the novel "Ibn al-Faqir" by the Algerian novelist Mouloud and the extent of the correspondence between the author and the narrator and also the main character, including either explicitly or implicitly way in accordance to what is known by (Philip Lejeune), 'the autobiographical Pacte'. It also aspires to reveal the possibility of moving from self writing to writing about the other, where the writer invests in his own autobiography to address aspects

المؤلف المرسل: د. إسمة ميسوم pmissoum@yahoo.com

* جامعة محمد بوقرة بومرداس pmissoum@yahoo.com

of the lives of his family members, neighbors and friends, as well as the customs and traditions that characterize his society.

Key words : Self-writing, diaries, autobiographical notes, autobiographical fiction, autobiography, fiction.

*** **

مقدمة :

الكتابة عن الذات عمل إبداعيّ يعكس علاقة مؤلفه بعالمه وبمن يحيطون به، ويسمح له بنقل تجاربه إلى الغير بكلّ ما يصاحبها من نجاحات أو إخفاقات، كما يعدّ متنفساً ومجالاً للتخلّص من كل ما يرهق النّفس ويتعبها، يظهر في شكل مذكرات أو يوميات أو اعترافات أو سير ذاتية تتخذ من الواقع مادة أوليّة، وقد يأتي في شكل هجين يجمع بين التّخييل والواقع، حيث تظهر ملامح المؤلّف عبر إحدى شخصيات العمل الذي يتّخذ طابع الرواية وهو ما يعرف بالرواية السير ذاتية (roman autobiographique).

تساهم الكتابة عن الذات في تقديم حصيلة تجربة مؤلّفها بالوقوف على أبرز المحطّات التي مرّ بها والتي ساهمت في نحت شخصيته، لكنّها تتجاوزها لتكتب عن الآخر، وهو ما لمسناه في رواية "ابن الفقير" للكاتب مولود فرعون، فكيف نقلنا هذا الأخير من عالمه الضيّق (الأنا) إلى عالم أوسع (الآخر) مثله العائلة والقرية ثم مجتمع المدينة؟ وفيما تجلت معالم السيرة الذاتية في الرواية؟

1. كتابة الذات أو كتابة الأنا:

استقطبت الكتابة عن الذات أو كتابة الأنا اهتمام النّقّاد الغربيين والعرب على حدّ سواء، فعرفت أنّها "جنس جامع لضروب من الكتابة السردية، تتخذ ذات المؤلّف مداراً لها، و تقوم على التّطابق الصّريح بين أعوان السرد الثلاثة : المؤلّف والزّاوي والشّخصية. وتعدّ (السيرة الذاتية واليوميات الخاصة والاعترافات والرّسم الذاتيّ والمذكرات) من أشهر كتابات الأنا ..."¹ غير أنّ هذا التعريف ينمّ عن قصور في رصد أشكال كتابة الذات بإقصائه لأشكال أخرى تدخل ضمن ما يعرف بالسرد الذاتيّ التّخييليّ من قبيل: الرواية بضمير المتكلّم وكذا التّخييل الذاتيّ، باعتباره كتابة جامعة بين التّخييل والسّير ذاتي قد يكون ذا صلة بالرواية السير ذاتية والسيرة الذاتية المتخيّلة.²

وقد طرحت السيرة الذاتية إشكالا كبيرا، خاصة فيما يتعلق بمفهومها وحدودها حيث اعتبرها بعض النقاد جنسا أدبيا قائما بذاته، محاولين رسم حدود تنماز بموجها عن بقية الأشكال المتفرعة عنها، فالسيرة الذاتية حسب محمد برادة على خلاف المغايرات والتنويعات المتفرعة عنها (اليوميّات، و المذكرات، و الصّور الشّخصيّة، والاعترافات) تستعيد حياة كاتبها اعتمادا على الذاكرة واستحضار الماضي مع ما يقترن بذلك من انتقاء وحذف وتوهم وتخيل³ - وهو مفهوم لم يقص أشكال السرد الذاتي التخييلي -، واعتبرها البعض تنوعا من تنويعات كتابة الذات، في حين اعتبرها آخرون أمثال عبد الفتاح وفكوح أسلوبا في الكتابة⁴.

هي إذن وجهات نظر حاولت تحديد مفهوم دقيق للسيرة الذاتية يميّزها عن غيرها من التنويعات المتفرعة عنها، والحق أن الأمر ليس بالهين ذلك أن السيرة الذاتية تعتمد اليوميات والمذكرات والاعترافات وغيرها من أساليب الكتابة التي تعتمد البوح مادة أولية تركز عليها.

2. الميثاق السّير ذاتي (Pacte autobiographique):

يعرف "فليب لوجون" (Philippe Lejeune) السيرة الذاتية بأنها "حكي استرجاعيّ ثريّ يقوم به شخص واقعيّ عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركّز على حياته الفرديّة وعلى تاريخ شخصيّته بصفة خاصّة"⁵ فتشكّل بذلك نمطا من الخطاب ينماز بفضاء ظاهريّ خاص به، حاول لوجون التأسيس له في "كتابه الميثاق السّير ذاتي" (Pacte autobiographique) الذي أعاد من خلاله النّظر في مفهوم الميثاق السّير ذاتي في كتابيه "الأنا والآخر" و"أنا أيضا"، فاعتبره شرطا أساسيا لوسم نصّ من النّصوص بالسّيرة الذاتية، والكشف عن السّيرة الذاتية المستترة داخل جنس الرّواية.

تكمّن أهميّة هذا الميثاق في العقد الذي يبرمه المؤلّف مع القارئ، ويظهر في بداية النّص إما: على شكل مقدّمات، يعلن فيها الكاتب عن نيّته في ترجمة حياته، أو مبثوثا في ثنايا النّص يلمسها القارئ في التّوضيحات أو التّعليقات، ما يعني وجود تطابق بين المؤلّف وبين السارد والشّخصيّة الرئيسيّة، إمّا بطريقة

علنية أو ضمنية ويفترض أن يحصل هذا التطابق بإحدى الطريقتين أو بهما معا وهو شرط أساسي "فلكي تكون هناك سيرة ذاتية يجب أن يكون هناك تطابق بين المؤلف والسارد والشخصية"⁶.

كما أشار إلى ضرورة الإعلان الصريح عن جنس النص إن كان سيرة ذاتية أم تخيلا، عبر علامة أجناسية على غلاف الكتاب، فيدرك القارئ منذ البداية أن ما يتلقاه واقعا أم مجرد تخيل. يوفر ميثاق القراءة هذا أو عقد تلقى السيرة الذاتية وقت وجهد القارئ، فيعي منذ الوهلة الأولى أنه في مواجهة نص يقع على تخوم الواقع والتخيل، فيكون هذا العقد فاصلا بين جنس السيرة الذاتية والأشكال الأخرى المتاخمة لها، وهو ما أشار إليه قاسبرني أنه من الواجب على مؤلف الرواية السير ذاتية أن "لا يتنكر ويخفي اسم الراوي الشخصية، بل أنه يحيل عليه، مما يساعد القارئ على أن يتعرف إليه، ويعمد فضلا عن ذلك من تضمين تفاصيل سير ذاتية متعددة تؤكد صحتها به باعتباره كائنا حقيقيا. إن درجة الصدق في الرواية السير ذاتية تتفاوت وفق الوظيفة التداولية التي تؤكد لها صلة المؤلف بالقارئ وفق المعلومات التي تقدم في النص"⁷.

يعد ميثاق القراءة في السيرة الذاتية ركنا أساسيا، ففي حال تبنى المؤلف الأسلوب الزوائي لصياغة سيرته الذاتية يصبح لازما الإفصاح عن هوية وجنس ما يكتب، حتى يعفي القارئ من الدخول في متاهة يتعذر عليه التعرف فيها على جنس الخطاب الأدبي، لكن تداخل الأنواع الأدبية أضفى تعقيدا على معايير التصنيف، فلم تعد القضية مقتصرة على الموائيق الأدبية وما يصرح به المؤلف على غلاف الكتاب، فقد تم تجاوز المؤشر الأجناسي الذي كثيرا ما كان مراوغا أو مهملًا من قبل المؤلف بهدف ترك مساحة أوسع للتصنيف.

3. معالم السيرة الذاتية في رواية "ابن الفقير":

تعرف الأدباء العرب على السيرة الذاتية، فكتبوا باحتشام نظرا لما تتطلبه هذه الكتابة من جرأة، وقدرة على كسر الطابوهات، فكانت النصوص التأسيسية الأولى بداية "بالأيام" لطفه حسين، و"أنا" للعقاد، و"حياتي" لأحمد أمين ثم "سبعون" لميخائيل نعيمة وصولا إلى "الخبز الحافي" لأحمد شكري، الذي كسر

الطَّابُوهَات وتحدّث بجرأة لا اعتيادية عن الجانب المظلم المسكوت عنه من حياته.

وفي الجزائر كانت الرواية المكتوبة باللّغة الفرنسيّة في بداياتها تبحث عن ملامح هوية ضائعة حاول المستعمر تغييرها فكانت كتابة الذات أو كتابة الأنا وسيلة لرسم معالمها، من هذا المنطلق ومن خلال الاشتغال على عمل روائي سير ذاتي جزائري، للأديب "مولود فرعون" (le fis du pauvre) "ابن الفقير" سنحاول الكشف عن خصوصيّة هذا النّص والاعتبارات التي يُحدّد بموجبها بوصفه تجسيدا لتأمّلات سير ذاتيّة تنقلنا من عوالم السّيرة الذاتيّة، إلى عالم آخر إثني اجتماعي، يزيج السّتار عن قرية من القرى الجزائريّة القبائليّة "توريرت موسى" مسقط رأس الكاتب .

4. العنوان :

يعدّ العنوان منفذا إلى فضاء الخطاب الأدبيّ، و باعثا على تكوّن أفق انتظار معيّن قد يؤكّده النّص أو ينفيه، و كثيرا ما يكون وسيلة القارئ للتعرف على عالم النّص وخصوصيّة لاسيما في حال ألحق بصيغة نصيّة تحدّد معالمه فتمكّن القارئ من الوقوف على هوية العمل (هل هو سيرة ذاتيّة أم رواية سير ذاتيّة أو غيرها من كتابات الأنا) خاصة في حال غياب المؤشر الأجناسي كما هو الحال في نصّ "ابن الفقير".

فالعنوان كما نلاحظ مختزل موجز مكوّن من خبر لمبتدأ محذوف ومضاف إليه، لم يلحق بأيّة صيغة نصيّة تحدّد معالمه، و لم يعرّز بمؤشر أجناسي، لكنّه يحمل شحنة دلاليّة عميقة ترمز إلى تجربة الكاتب وجانب من طفولته الصّعبة، فهو ابن الفقير الذي كثيرا ما تعلّق حلمه ومصيره بمنحة تسمح له بمواصلة دراسته في القسم الأعلى في حال نجح في الطّفر بها، أو العودة إلى مستنقع الفقر والحرمان كأقرانه من أبناء قريته الفقيرة النائية في حال لم يتحصّل عليها.

5. الرّؤية السّردية:

تتحدّد السيرة الذاتية عند لوجان بالميثاق والتطابق بين المؤلف، والسارد والشخصية، يتمّ الكشف عن هذا التطابق بسهولة في النصوص التي يصرّح فيها صاحبها بأنها سيرة ذاتية، لكنّ الأمر ليس كذلك بالنسبة للنصوص التي اختار فيها المؤلف إنكار هذا التطابق، أو على الأقل اختار ألا يؤكّده، فتوكل إلى القارئ مهمة العثور على التشابهات وعلى التطابق بين المؤلف والشخصية بالاعتماد على ما يعرفه عن حياة الكاتب.

تندرج رواية "ابن الفقير" ضمن تلك النصوص التي تحدّث عنها فليب لوجان، ففي محاولة لإيهام القارئ بوجود حدود بين المؤلف، والسارد، والشخصية، يفتح مولود فرعون روايته بصوت السارد مخاطبا القارئ باستعارة ضمير الغائب هو "منراد معلم متواضع ببلدة قبائلية... كان منراد طموحا. وكان يسخر من طموحه يدرك أنه إذا رام التحليق كثيرا مثل النسر، فإنه يخشى أن يسقط متخبطا مثل البطة⁸ كما اختار أن لا تكون مقدّمة الرواية اعتيادية ليدخل القارئ تدريجيّا إلى عالم يوميات منراد فوغولو بطل الرواية، عالم مولود فرعون نفسه " لنخرج من الدرج الأيسر دفتر التلميذ. ولنفتحه. فوغولو منراد.. نحن نستمع إليك⁹ .

في هذه المذكرات نسجّل احترام السارد (المؤلف) النظام المتبع في السيرة بضمير المتكلّم، فيقتصر على القارئ الدفتر الذي سجّل عليه البطل سيرته بكلّ شفافية وكان ينتظر يدا تخرجه من مخبئه. كما حاول إيهام قارئه بوجود شخصيتين مستقلّتين في الرواية شخصية السارد وشخصية فورولو فيخاطبه في كثير من مقاطع الرواية مباشرة " عندما يبقى كل شيء في حوزتك يا فورولو ربما ستنقطع حتما عن الحياة لأن الحياة قصيرة. هل سيعرف أبنائك وأحفادك أنك تعذبت كثيرا ؟ نعم. من المستحسن أن يعلموا ليتألموا هم أيضا ويحبون ويصارعون.¹⁰"

حاول المؤلف إذن مراوغة القارئ لكنّه لم يخرق مبدأ تطابق المؤلف، والسارد، والشخصية، على الرّغم من تصرّفه في بعض تفاصيل الرواية بداية باسم البطل منراد فوغولو الذي يحيلنا مباشرة لاسمه منراد = مولود فرعون =

فوغولو، ذلك أنّه وباستغلاله للجناس التّصحيقيّ أخفى هويته الحقيقيّة، وهي واحدة من التّقنيّات التي يلجأ إليها كاتب الرواية السّير ذاتيّة، أشار إليها لوجان في سياق حديثه عن النّصوص التي تحمل اسما مستعارا والتي أدرجها ضمن جنس الرواية السّير ذاتيّة قائلا: "كل النصوص التخييلية التي يمكن أن تكون للقارئ فيها دوافع ليعتقد انطلاقا من التشابهات التي يعتقد أنه اكتشفها، أن هناك تطابقا بين المؤلّف والشخصية، في حين أن المؤلّف اختار أن لا يؤكده، و حسب هذا التّحديد تشمل رواية السيرة الذاتية روايات شخصية (تطابق السارد و الشخصية) مثلما تشمل روايات لا شخصية (شخصيات مشار إليها بضمير الغائب)¹¹

وعليه يفترض أن يكون القارئ حذرا مطالعا ومحيطا بما يتعلّق بنشأة الكاتب وأهمّ محطات حياته إذ إنّ من الصّعوبة بما كان وضع حدود فاصلة للتّخييل واللاتّخييل في الرواية السّير ذاتيّة دون اللّجوء إلى مذكرات أو يوميات الكاتب أو ما حرّر عنه، هذه الإضاءات تؤكّد حضور المؤلّف في عمله وهو ما أشار إليه جورج ماي فيما يخصّ جمع المؤلّفين بين الكتابة الرّوائية والسّيرة الذاتيّة واعتبارها وسيلة مساعدة للنّقاد في فهم رواياتهم من خلال سيرهم الذاتيّة¹² يقول مولود فرعون في رسالة إلى صديقه ايمانيل روبلاس "كان لوالدي ثمانية أطفال... تكبراني طفلتان وتأتي بعدي واحدة، وزميلي في الأخوة هو الأخير في العائلة... ولا شيء يمكنني قوله عن والدتي الكريمة. تقريبا مثل ما جاء في "ابن الفقير" فقد كانت خالتي تشتغلان بالفخار ولكنهما لم تموتا مثلما رويت ذلك في "ابن الفقير"¹³ و يصحّح في الرواية أنّ المستقبل الذي سطر لفورولو هو نفسه ما سطر له من قبل والده "مادامت العطلة قد انتهت ولم يراسلوك بعد، و حتى إن وصلت النقود، هل تتصور أننا خلقنا للمدارس؟ نحن فقراء و الدراسة مخصصة للأغنياء هم يمكنهم أن يسمحوا لأنفسهم بتضييع عدة سنوات، وأن يسقطوا في الأخير ليصبحوا من الكسالى في القرية... إن الأمر صعب جدا فالفرنسيون لا يمنحون الأماكن بدون مقابل"¹⁴ ويؤكّد ذلك في واحدة من رسائله التي يشكوا فيها

يأسه جرّاء ضغوطات الحياة والأبناء و مستقبلهم " أفضل أن أستمّر في العيش دون تفكير في المستقبل. الله أعلم بأنني لم أرغب يوماً في أن أكون رب عائلة لأربعة أطفال ... يحدث أن أختتم بهذه النتيجة وهي: أن أبقى قبائلياً وفي هذا المكان، وسحقاً للبنات! ويذهب الأطفال إلى المدرسة. وإذا لم ينجوا مثل والدهم، فإنهم سيصبحون فلاحين مثل جدّهم و أعمامهم، لا يرى والدي أبعد من هذا"¹⁵

ساهمت الاعترافات التي تحويها هذه الرسائل في توجيه القارئ و وضع أصبعه على حدود التّخييل واللاتّخييل في العمل، وكشفت أنّ رواية "ابن الفقير" عمل أدبيّ فيه من الوصف والعناية الكبيرة بأدقّ التفاصيل ما جعله يتوجّه من اللاتّخييل إلى التّخييل عبر وسيط خياليّ أو روائيّ للسرد مثلته شخصية فورولو .

ولأنّ كاتب السّيرة الدّاتية كثيراً ما يجد نفسه أمام فراغات كونه يكتب من ذاكرته التي تسجّل الوقائع بطريقة انتقائيّة، فإنّ ملأ تلك الفراغات يتطلّب اللّجوء إلى المخيلة، فالكاتب "يتذكّر تخيلياً وينقل خبراته إلى كتابة روائية، و عليه تكون كتابة السّيرة الدّاتية أشدّ خطراً وصعوبة من كتابة التاريخ نفسه"¹⁶ و يظهر من خلال عديد المقاطع في الرّواية اعتماد الكاتب على الذاكرة يقول على لسان فورولو: "ومهما رجعت بالذاكرة إلى الخلف فإنني ألقى حولي دائماً حميمية وصداقة ساذجة تحيطاني ولعل أبعد صورة ترتسم في ذاكرتي فجأة هي تلك التي تمثل صبيّاً صغيراً جالساً في فناء متواضع على جرة مقلوبة بينما كانت ابنة عمه شاحبة واقفة أمامه... ذلك ما أتذكره من مرحلة الطفولة"¹⁷.

تنبّه لوجون إلى هذه القضية فأشار أنّه كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار تعدّد المعنى أثناء استخدامه لمصطلح السّيرة الدّاتية، ذلك أنّه أهمل على عكس قارو شموليّة المصطلح، فالسّيرة الدّاتية في رأي قارو، تفسح مكاناً واسعاً للاستيهام، ومن يكتفيها ليس ملزماً البتّة أن يكون دقيقاً حول الأحداث كما هو الشّأن في المذكرات، أو بأن يقول الحقيقة المطلقة كما هو الشّأن في الاعترافات "أن نكتب لا يعني أننا نروي ذكرياتنا وأسفارنا وحبّنا وأحلامنا و استيهاماتنا بصدق وأمانة"¹⁸. إنّ اعتماد المؤلّف على الذاكرة ملء الفراغات ينحو بالنص

السير ذاتي منحى تخيليا ويجعل القارئ يدخل متاهة البحث عن حدود الواقع والتخيل وكذا متاهة التصنيف .

6. خصوصية الزمان والمكان في رواية "ابن الفقير":

تكمن خصوصية رواية "ابن الفقير" في زمن السرد الذي يبدأ من نقطة النهاية، اللحظة التي وجد فيها البطل نفسه معلماً في مدرسة ابتدائية ينقصها و ينقصه الكثير من الإمكانيات لتحقيق طموحه وطموح جيل كامل من زملائه و تلاميذه، فعبر تقنية الفلاش باك و باستغلال مذكرات كتبها البطل يستدعي السارد زمنا ماضيا لينهي الرواية في اللحظة نفسها التي بدأ منها فيقول داعيا قراءه للاستماع إلى قصة فورولو " لنخرج من الدرج الأسير دفتر التلميذ . و لنفتحه. فورولو منراد .. نحن نستمع إليك."¹⁹

قامت الرواية باعتبارها سيرة ذاتية على التعاقبية الزمنية على مستوى الأحداث والأفكار والعلاقات التي تربط الشخصيات، كما فسحت مجالا لاستباق الأحداث فالسارد الكاتب يعيش لحظة لاحقة لزمن السرد، ما خول له إصدار الأحكام، و التعقيب على حدث ما، أو حتى إظهار الحنين إلى فترة مرت من حياته يقول فورولو: " أختي الصغرى أنت التي أضحيت الآن ربة عائلة لقد استجاب لله لدعائك، وأبقي لك أخاك المؤدي "²⁰

لقد منحت التعقيبات والأحكام خصوصية للرواية ف"الطابع المشروط للسيرة الذاتية هو طريقة يقرر فيها كاتب السيرة الذاتية، في السرد، أنه إذا كان شيء ما آخر قد حدث أو إذا كانت معرفة أخرى متيسرة ، فإن حدثا معيناً كان سيحدث أو لم يكن ليحدث، أو إذا كان راوي السيرة الذاتية قد عرف ما يعرفه الآن فلأن الحدث أو الموقف كان يمكن أن يؤول بطريقة مختلفة "²¹ وهذا أمر منطقي لأنّ الذات الموضوع (البطل فورولو) في مرحلة متأخرة (الطفولة) في حين أنّ الذات الساردة تتموضع في زمن متقدّم يتيح لها رؤية أوضح وإدراكا أوسع للأمر، فالسارد (الكاتب) هنا يسمح لنفسه أن يعيش التجربة من جديد لكن بصفة مغايرة، ذلك لأنّ كتاب السيرة الذاتية يقول جورج ماي:"يرغبون في تذكر

مسيرتهم الحياتية بنوع من الدرس والتحليل وهذا مالا يستطيعونه في سن مبكرة"²² وهو ما لمسناه في رسالة بعث بها مولود فرعون إلى لاندي بينوس قائلا: "تعلمين علم اليقين بأن فوغولو هو أنا تقريبا . أنا حين كنت طفلا صغيرا في العشر سنوات كما أراه الآن. أما الآن فيحتمل أن أراه رؤية أخرى"²³

تعني الأماكن في رواية "ابن الفقير" الكثير للكاتب (السارد) فقد تجاوز حدّ الوصف إلى تأكيد الانتماء، كما تجاوز صفة السائح العابر فيصرّح في مقدمة الرواية: "إن السائح الذي يجرؤ على التوغل في عمق بلاد القبائل سوف تخب فؤاده مناظرها يقينا أو مجاملة. سيجد أحياءها سحرية، وتبدو له مشاهد شاعرية، فلا يسعه إلا أن يشارك الأهالي مشاركة وجدانية في عاداتهم المتسامحة... ألفت اعتذار لكل سائح وذلك لكونك تمر على الجهة بصفة سائح فتكتشف هذه المشاهد السحرية والمناظر الشاعرية. وينتهي حلمك بانتهاء إيابك إلى مأواك واصطدامك بالرتابة اليومية التي تنتظرك على عتبة"²⁴ أما هو ابن المنطقة، لم تنسه إقامته في العاصمة ولا دراسته في المدرسة الفرنسية قريته ولا عاداته وهو تلميذ، كما لم تنسه إقامته بالعاصمة ولا تنقلاته إلى فرنسا قريته وهو شاب. بل إنّه لم يشعر يوما بالانتماء للعاصمة ولم يتردّد لحظة في إعلان تعلقه بمسقط رأسه وحنينه الدائم لمنطقة القبائل بالرغم من صعوبة تضاريسها وكذا صعوبة العيش فيها، ورد في إحدى رسائله إلى إمانيل روبلاس " أقسم لك أن هذه المهنة أضجرتني شأنها شأن سالمي، و الجزائر التي ما تعلق بها قلبي يوما، لا أخرج أبدا ولا ألتقي بأحد المرة. وأما في المنزل فإننا لا ننقطع عن المشاجرات ولعل السبب وجودنا وجها لوجه طيلة اليوم، ليس في وسعنا فعل أي شيء لسنا من الجزائر، ولن نكون منها أبد الدهر"²⁵

لم يقدم الكاتب المكان بطريقة اعتيادية بل باعتماد ما يعرف ب زاوية الالتقاط الكبيرة (grand angle) وهي تقنية سينمائية تهدف إلى إبراز أكبر عدد ممكن من الأشياء كمنظر من المناظر الشاملة أو منظر طبيعي عام، وظّفها الكاتب في بداية الرواية لوصف مسقط رأسه بداية بمدينة تيزي وزو " تيزي عبارة عن تجمع سكاني من ألفي نسمة. تنتزع دورها انتزاعا الواحدة تلو الأخرى على ربوة ضخمة كأنها وحش من وحوش ما قبل التاريخ .

مثلا مترا طولا، و شارع رئيسي هو عبارة عن مقطع من نهج يربط عددا من القرى، ويضفي إلى طريق مبلطة وبالتالي يقود إلى المدن"²⁶. ليدخلنا بعدها تدريجيا إلى القرية فيصف الأرزقة والبيوت والمسجد إلى أن يدخلنا بيت فورولو لنعيش معه يومياته مستثمرا تقنية سينمائية أخرى تقنية اللقطة المكبرة (zoom) التي أتاحت له تسليط الضوء على الشخصيات المؤثرة في حياة فورولو الأم، والأب والجدة، والعم، وزوجة العم، والخالة. يرتبط المكان إذن في هذا النص السّير ذاتي بشخصية الكاتب، فهو مكان لا اعتياديّ يفسر حضور عاطفيّ الارتباط بالقرية من جهة، و مرارة ناتجة عن معاناة سكانها من جهة أخرى.

7. البعد الإثنولوجي الإنساني في رواية "ابن الفقير":

إذا كانت السيرة الذاتية كتابة المرء حياته الخاصة فهذا لا يعني أنها لن تتجاوز هذا الفرد إلى أفراد آخرين يشكلون المجتمع، بل تتعدى ذلك ل"تتموقع عند السطح البيئي القائم بين الأدب ومجال كامل من الكتابة في التحليل النفسي، الموسيقى، و الأنثروبولوجيا والسياسة والفلسفة والتاريخ، وما إلى ذلك"²⁷

و مولود فرعون عبر "ابن الفقير" حاول رصد التقاليد والتصورات الموروثة عن الأجداد والاعتزاز والشرف، والتآزر القبائلي، والعداوة، والثأر الدّموي إضافة إلى الكرامة، و الإنسانية، و قواعد أخلاق وسلوك الإنسان في الأسرة و المجتمع. فمن خلال إبراز الجوهر الأصلي لعالمه ومقومات حياته وتنظيم ظروف الوجود الإنساني فوق هذه الأرض، يستطيع الإنسان أن يستردّ بطريقة فريدة من نوعها وجهه الخاص وثقافته الخصوصية كسمة أساسية ليقظة الوعي الوطني²⁸

على هذا الأساس صنّفت رواية "ابن الفقير" ضمن الروايات الإثنية لتركيزها على منطقة معينة بسكانها ورصد عاداتهم وتقاليدهم، والواقع أنّ القضايا التي طرحها أشمل وأوسع من أن نحصرها في مجتمع دون غيره فالكاتب وإن كان ينقل واقعا اجتماعيا قبائليا معيشا، عالج قضايا بالغة الأهمية تتعدى حدود المنطقة.

خصّص مولود فرعون الافتتاحية لإظهار المكان وتفاصيل الشوارع والبيوت وساكنيها، وصف أثار من خلاله قضيّة التفاوت الطبقيّ، يقول السارد: "يمكن أن يتشكل منزل الثري من قطعتين متقابلتين قد تبلغان اثنتي عشر ذراعاً عرضاً على أربع عشرة طولاً... إن تهيئة البيوت من الداخل تعود لربات البيوت. فيه شقاؤهن وكبرياؤهن. وبحسب ببحوحة العائلة فإن الطلاء يجدد دورياً: سنوياً أو كل شهرين أو كل ثلاثة أشهر"²⁹.

عبر تقنية الاسترجاع، وبالعودة إلى ذكريات الطفولة، مرحلة ما قبل بداية الحكاية ومن خلال استعراض أهم محطات حياته، تعرض مولود فرعون لقضايا كثيرة لعل أهمها مكانة الذكر في العائلة يقول فورولو "أدركت أهميتي بداية من سن الخامسة فأسرفت في حقوقى وتحولت إلى طاغية على الصغرى من أخواتي"³⁰ وكثيراً ما يتمّ ذلك بتواطؤ أفراد الأسرة تتقدّمهم الأم، التي كثيراً ما كانت تجيب ابنتها الصغرى في حال شكواها من أخها "أليس أخوك؟ ما أسعدك لوجود أخ لك! ليحفظه الله لك كفى عن البكاء و اذهبي لتقبليه"³¹ ما جعل الفتاة تصل إلى قناعة عدم الفصل بين عبارة "ليحفظه الله لك!" وبين اسم أخها فتشكو باكية "أخي ليحفظه الله لك هو الذي أكل قطعتي من اللحم _ أخي ليحفظه الله لك مزق منديلي"³².

ولوجود الذكر في العائلة أهميّة كبيرة فهو حامل اسم الأب وحامي الأخوات وميراث العائلة، لذلك تضرّ المرأة التي لم تنجب الذكر ناقصة، وكان ذلك حال حليلة زوجة عم فوغولو التي لطالما اعتبرته عدواً لها ولبناتها "إنه ليس أخوكن، وليس لكن أخ!"³³ هي إذن النظرة الدونية للفتاة في مقابل الاحتفاء بالذكر ثقافة ورثت جيلاً عن جيل، لم تسلم من ترسباتها حتى الطبقة المثقفة، ولعلّ معاناة مولود فرعون في رحلة بحثه عن الولد حرّكت لديه هذه الذكريات بالذات، ففي واحدة من رسائله لصديقه إمانيال روبلاس يعلنها صراحة "نعاني من الأحزان منذ خمسة عشرة يوماً بسبب صبيتي الرابعة... هل تعتقد بأننا فخورين بذلك؟ لقد جاء أفراد تيزي هبيل لشتّم: الأب و الأم و الإخوة على رأس الجميع! نحن أفضل

الخلق... عندما سألتني أخي بلهجة تهكم: "ماذا ستصنع" بأربع بنات؟" أجبت به بحزن: "مربع" و الحقيقة أنني لا أتمنى هذه التشكيلة لأي كان".³⁴

وفي السياق ذاته عالج مولود فرعون قضية كانت شائعة في المجتمع القبائلي وفي كثير من المجتمعات العربيّة، وربما لا تزال، تتمثل في حرمان المرأة من حقّها في الميراث، مصوّرا معاناتها وسط مجتمع ذكوريّ، ولعلّ الصورة الأبلغ في الرواية جسّدت من قبل خالتيّ فورولو اللتان كانتا تنتفعان بالحقل فقط إذ "لم يجروا والدهن على منحهن كل ثروته وهي الكيفية الوحيدة قبل وفاته التي تخفضهن من الفاقة، كان يخشى على ثروته أن تكون صيدا سهلا بين أيدي النساء كما كان يرفض أن يدنس عرض ال آت موسى الحاضرين منهم والقادمين، لم يكن يرغب في إقامة الآخرين على أراضيه مخلفين أنجال و أبناء أنجال"³⁵ كما أظهر من خلال العمل كيف رضخت المرأة لهذا الظلم فقط للمحافظة على اسم العائلة، إذ لم تسع والدّة فورولو ولا أخواتها لتغيير هذا الواقع "تحس الأخوات بالرضى على الرغم من المراقبة والحيف المفروضين أحيانا عليهن من طرف خوولتهن وأعمامهن ... قبلن بأن يستغفلن أعمامهن، و أن يسرقن على أن يقصين من المجموعة وأن يحتفظن بحقهن في اسم العائلة".³⁶

كما أشار الكاتب من خلال سيرته إلى حملات التبشير وأثارها على سكّان المنطقة (منطقة القبائل) وكيف سعى المستعمر لتمسيح الشّعب عن طريق التّأثير على الأطفال والمراهقين أمثال فورولو وصديقه أزيير اللذان "اتخذا الموقف نفسه خلال الاجتماعات المسائية في قاعة العبادة كانا يذهبان هناك بانتظام يقرآن مقاطع من الإنجيل مثل جميع التلاميذ وينشدان التراتيل بطريقة جيدة، ويسمعان باحترام تعليق القائد، ثم يعودان إلى غرفتهما ليستأنفا بدون تردد عملهما المنقطع، لم يرهما أحد يطلبان توضيحا حول أي مقطع من الإنجيل، أو يذهبان إلى القاعة للبحث عن شرح هذه النقطة، أو تلك من الدين، أو يطلبان من الراهب أن يصلي لهما"³⁷ وقد كان لذلك فيما بعد تأثيرا على الولدين وكان الحال كذلك لأبناء الفقراء الذين يضطرونّ للالتحاق بالتبشيرات لضمان المأكل

والمشرب والمبيت، والنتيجة تأثير المبشرين عليهم خاصة أنهم كثيراً ما كانوا يظهرون الطيبة ويدعون إلى التسامح والمساواة بين الأفراد، هذا ما جعل فورولو وأزير يقول السارد: "لا يبديان أي نفور من الديانة البروتستانتية، على العكس، فقد أخذوا يحبانها مع مرور الوقت لبساطتها وتسامحها، لقد عرفنا الإنجيل معرفة عميقة وكذلك الوصية الجديدة، كنا يجدان متعة في إنشاد التراتيل، حتى وحدهما، التراتيل التي حفظها والتي تمجد المسيح المصلوب، وكثيراً ما كانا يصليان سرا بقلبيهما كما كان أصدقاءهما يصلون"³⁸

تظهر أبعاد السيرة الذاتية في رواية "ابن الفقير" جليّة فتتقاطع فترة طفولة ومراهقة فورولو بطل الرواية مع طفولة مولود فرعون ومراهقته، وقارئ العمل لن يعدم هذه التقاطعات ببحث بسيط في ما خلفه مولود فرعون لاسيما الرسائل التي كان يرسلها لأصدقائه وحملت الكثير من الأمور الشخصية والاعترافات كتاريخ ميلاده واسم قريته وعمله في التعليم وغيرها من التفاصيل التي تحيل إليه مباشرة.

خاتمة :

إذا كانت كتابة الذات فعالية تحاول الذات من خلالها وصف نفسها وعلاقتها بما يحيط بها وكذا البوح بصراعاتها النفسية ، وكان هذا الوصف يقترب من القصّ، فإنّ هذا العمل كان متنقّساً للكاتب بثّ من خلاله ذكرياته وأحلامه، كما عالج عبره قضايا اجتماعيّة شكلت خصوصيّة المجتمع القبائليّ لكنّها تجاوزته إلى ما هو أبعد وأوسع، فبالرّغم من التحام إبداع مولود فرعون قبل كل شيء بالخصوصيّة القبائليّة وبالتقاليد والقيم الرّوحية الضّاربة بجذورها في هذه الأرض، فإنّ الكاتب لم يخرق انسجامها مع القيم الإنسانية عامة ، من هنا تظهر قيمة الرواية السّير ذاتيّة التي نقلتنا من عالم الكاتب إلى عالم آخر أوسع و أشمل تقاطع فيه الواقع بالتخييل، الذات بالجماعة، فصورة فورولو لا تتوضّح إلّا من خلال علاقته بأفراد أسرته ثمّ من خلال تجلّيات الحياة في القرية، داخل الأسرة، وفي المدرسة، تعلّمه اللّغة الفرنسيّة وغياب المستعمر لكنّ حضور طيفه المتمثّل في سياسة التّجويع والتّفكير والعمل على تمسيح أكبر عدد من الجزائريّين.

خرجت الدّراسة بمجموعة من النتائج نذكرها فيما يلي :

-لم يُعرّز عنوان "رواية ابن الفقير" بمؤشر أجناسي يسهل على القارئ اكتشاف معالم السيرة الذاتية، لكن المؤلّف حمّله شحنة دلالية عميقة تحيلنا إلى جانب من طفولته الصّعبة.

-غياب المؤشر الأجناسي في الرواية وضعها ضمن النصوص التي اختار فيها المؤلّف ألا يصرّح بالتطابق بين الشخصية الروائية وبين ذاته.

-حاول المؤلّف مراوغة القارئ لكنه لم يحذف مبدأ تطابق السارد والشخصية.

-تتوجّه "رواية ابن الفقير" من اللاتخييل إلى التخييل عبر وسيط خيالي أو روائي للسرد، مثلته شخصية مزاد فورولو.

-تجلّت خصوصية السرد في زمن السرد الذي يبدأ من نقطة النهاية بالاستعانة بتقنية الفلاش باك، وانتهاء الرواية في اللحظة ذاتها التي بدأت منها.

-كما تجلّت خصوصيتها في معايشة السارد (المؤلف) لحظة لاحقة لزمن السرد سمحت له إصدار أحكام والتعقيب على الأحداث وحتى إظهار الحنين إلى فترة مرّت من حياته.

-تجلّت خصوصية المكان في الرواية بتجاوز حد الوصف إلى تأكيد الانتماء.
-وضع حدود فاصلة للتخييل واللاتخييل في الرواية السير ذاتية يتطلب حذرا وإطلاعا على ظروف نشأة الكاتب وأهم محطات حياته بالاستعانة بالمذكرات واليوميات والرسائل أو بما حرر عنه.

-تجاوز المؤلف حدود الأنا (كتابة الذات) بعرضه لقضايا أوسع من أن نحصرها في مجتمع دون آخر ، حيث عالج قضايا بالغلة الأهمية تتعدى حدود أسرته ومجتمعه القبائلي، من بينها مكانة المولود الذكر في العائلة، وحرمان المرأة من حقها في الميراث، وحمالات التبشير التي تعرضت لها منطقة القبائل وغيرها من القضايا التي جعلتنا نتجاوز توصيف الرواية ب (الرواية الإثنية) باعتبار أن القضايا التي طرحها أشمل وأوسع.

الهوامش:

- 1 معجم السرديات، مجموعة من المؤلفين، إشراف محمد القاضي، ط 1 دار محمد علي، تونس دار الفارابي لبنان، تالة، الجزائر، دار العين، مصر، دار الملتقي، المغرب، ط 1 2010 ص ص 354، 355.
- 2 سلوى السعداوي، الكذب الحقيقي، الدار التونسية للكتاب، ط 1 2016، ص 17
- 3 محمد بريدة: المدينة الملونة ضمن الذات في السرد الروائي، رؤية، ط 1، 2010، ص 89
- 4 ينظر عبد الفتاح وفكوح، أدب السيرة الذاتية، فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2016 ص ص 118، 120
- 5 فليب لوجون، السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة عمر حلي، ط 1 المركز الثقافي العربي 1994، ص 22
- 6 المرجع نفسه، ص 24
- 7 سلوى السعداوي، الكذب الحقيقي، مرجع سابق، ص 61
- 8 مولود فرعون، ابن الفقير، تر عبد الرزاق عبيد، دار تانتقيت، بجاية، الجزائر، 2014، ص 11
- 9 الرواية ص 13
- 10 الرواية ص 123
- 11 الرواية ص 37
- 12 جورج ماي، السيرة الذاتية، تعريب عبد الله صولة ومحمد القاضي، بيت الحكمة، تونس، 1992
- 13 مولود فرعون، الرسائل، تر عبد الرزاق عبيد، دار تانتقيت، بجاية - الجزائر 2016، ص 90
- 14 المرجع نفسه ص 151
- 15 المرجع نفسه ص 32
- 16 هاني العمدة، دراسات في كنب التراجم والسير، المؤسسة الصحفية الأردنية، عمان، الأردن، 1981، ص 9، 10
- 17 الرواية ص 31
- 18 Gilles Deuze, critique et clinique ed, de minuit, 1993, pp 12-13
- 19 الرواية ص 13
- 20 الرواية ص 33
- 21 هيبوج سلفرمان، نصيبات، تر علي حاكم صالح حسن ناظم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2002، ص 147
- 22 جورج ماي، السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص 36
- 23 مولود فرعون، الرسائل، المرجع نفسه، ص 89
- 24 المرجع نفسه ص 14

- 25 المرجع نفسه ص ص 133 ، 134
26 المرجع نفسه ص ص 14 ، 15
27 هيبوج سلفرمان: نصيات، المرجع نفسه، ص 144
28 عبد العزيز بوباكير، الأدب الجزائري في مرآة استشراقية، دارالقصبة 2002
29 الرواية ص ص 19، 20
30 الرواية ص 33
31 الرواية ص 33
32 الرواية ص 33
33 الرواية ص 34
34 مولود فرعون : الرسائل، المرجع نفسه، ص 24
35 الرواية ص 26
36 الرواية ص 28
37 الرواية ص 163
38 الرواية ص 164